رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

منارات
manarat

العدد (3157) السنة الثانية عشرة - الأربعاء (27) آب 2014

WWW. almadasupplements.com

سميح القاسم

مات سميح القاسم وفتح كتاب شعره لنقرأه

سميح القاسم ذاكرة فلسطين

اعداد/ منارات

رحل "شاعر المقاومة الفلسطينية" كما يصفه الراحل الكبير محمد دكروب.. رحل إلا أنه أبى أن يغادر من دون أن يكحّل عيناه بانتصار المقاومة الفلسطينية في غزة.. هو الذي قال، في عام ١٩٧٩، في النادي الأرثوذكسي العربي في القدس، "لن يموت القسام والظلم حي/ كل طفل من شعبنا قسام".

التحق بصديق عمره محمود درويش.. هو الذي رثاه بقصيدة "خذني معك" في ١٠ آب ٢٠٠٨.

"أنا لا أحبك يا موتْ/
لكني لا أخافك./
واعلم أني تضيق عليَّ ضفافك/
واعلم أن سريري جسمي/ وروحي لحافك/
أنا لا أحبك يا موتْ/
لكني لا أخافك"،

كتب القاسم أيضاً في ظل معاناته، فيما قال للمرض الذي أنهكه، "اشرب فنجان القهوة يا مرض السرطان كي أقرأ بختك بالفنجان". واليوم، أطفأ آخر سجائره فالحياة بنظره "إنها مجرّد منفضة"، وفق عنوان سيرته الذاتية.

وقد أطلق الكاتب لطفي بولعابة على القاسم لقب "الشاعر القديس"، هو الذي "منتصب القامة يمشي مرفوع الهامة يمشي.. في كفه قصفة زيتون وعلى كتفي نعشه".. هو "قيثارة فلسطين"، "متنبي فلسطين"، كما تصفه الشاعرة والباحثة الدكتورة رقية زيدان.. وهو "شاعر العرب الأكبر" كما يراه الناقد الدكتور المتوكل طه.. هو "سيّد الأبجدية"، بحسب الكاتب عبد المجيد دقنيش.. هو من اعتبره الكاتب محمد علي طه "شاعر العروبة بلا منازع وبلا نقاش وبلا جدل" ورأى فيه الناقد حبيب "فرادة النبوّة".

وقد كتب فيه رئيس تحرير جريدة "السفير" الأستاذ طلال سلمان في أيلول الماضي، "لقد سكن سميح القاسم وجدان الأمة منذ أول قصيدة، خصوصاً أنها كانت فتحاً جديداً في عالم الشعر المرتبط بالأرض وأهلها، والذي لا يتوجه إلى إثارة حماستك بقدر ما يتوجه إلى ضميرك الوطني وإلى انتمائك القومي فيزيد من شعورك بالتقصير".

والعالم العربي، "أشد من الماء حزناً" على رحيل القاسم فيما "ما زال في تاريخنا سطر.. لخاتمة الرواية!"، سطر انتصار فلسطين على الاحتلال.

سيرة القاسم:

- فلسطيني يحمل الجنسية الإسرائيلية.
- ولد في مدينة الزرقاء في الأردن في ١٩٣٩/٠٥/١١ وكان والده ضابطاً في قوة الحدود الإنكليزية. وأصل عائلته من بلدة الرامة في الجليل الفلسطيني.
- والده: محمد القاسم آل حسين.
- والدته: هناء شحادة محمد فياض.
- تزوج نوال سلمان حسين في تموز ١٩٧٧ ولهما من الأولاد: وطن محمد، وضاح، عمر، وياسر.
- درس المرحلة الابتدائية في مدرسة اللاتين في الرامة (١٩٤٥ - ١٩٥٣)، ثم درس في كلية تيرا سانطا في الناصرة (١٩٥٣ - ١٩٥٥)، ثم نال الثانوية في سنة ١٩٥٧. ليسافر من بعدها إلى الاتحاد السوفياتي حيث درس سنة واحدة الفلسفة والاقتصاد واللغة الروسية.
- سجن مرات عدة، ووضع في الإقامة الجبرية أكثر من مرة بسبب مواقفه المناهضة للصهيونية.
- كان أول شاب درزي يتمرد على قانون التجنيد الإلزامي كما أسس حركة "الشبان الدروز الأحرار" في أواخر الخمسينات لمناهضة السياسة الإسرائيلية إزاء العرب.
- انضم إلى القائمة الشيوعية الجديدة (راكح)، وتعرض للمضايقة والسجن جراء انتمائه السياسي. وكان عضواً في "حركة الأرض" قبل انتمائه إلى "الحزب الشيوعي".
- عضو في لجنة المبادرة الدرزية، واللجنة القطرية للدفاع عن الأراضي العربية، ولجنة حقوق الإنسان، ولجنة أنصار السجين.
- عمل مدرّساً في المدارس الابتدائية العربية، لكن وزير المعارف الإسرائيلي أمر بطرده على خلفية مواقفه المناهضة لإسرائيل.
- عمل في المنطقة الصناعية في حيفا، لكن الاستخبارات الإسرائيلية ضيقت عليه، فطرد من العمل وشرع بعده بالعمل كمفتش في دائرة التنظيم المدني في الناصرة، ثم استقال احتجاجاً على التلاعب ومصادرة الأراضي العربية.
- تولى تحرير مجلة "هاعولام هازيه" (هذا العالم)

اليسارية التي أصدرها في تل أبيب عام ١٩٦٦ أوري أفنيري. ثم تولى تحرير مجلة "الغد" ثم مجلة "الجديد".
- أصبح سكرتيراً لتحرير جريدة "الاتحاد" في حيفا.
- أسس منشورات "عربسك" في حيفا مع الكاتب عصام خوري عام ١٩٧٣.
- رئيس تحرير مجلة "كل العرب" التي تصدر في حيفا.
- رئيس اتحاد الكتاب العرب في إسرائيل.
- مدير "المؤسسة الشعبية للفنون" في إسرائيل.
- نال جائزة الإبداع في الشعر من مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين في ١٩٩٨/٠٦/١٨.
- زار سوريا ضمن وفد من فلسطينيي ١٩٤٨ في ١٩٩٧/٠٨/٠٨ وقابل الرئيس حافظ الأسد، وألقى أمسية شعرية في مكتبة الأسد في دمشق. ثم زار سوريا مرة أخرى، والتقى الرئيس بشار الأسد في ٢٠٠٠/١١/١٩.
- منعته السلطات الإسرائيلية في ٢٠٠١/٠٧/٢٠ من زيارة لبنان لإحياء أمسيات شعرية والالتقاء مع عدد من الشخصيات من بينها وليد جنبلاط.

- مؤلفاته الشعرية:

× مواكب الشمس (١٩٥٨).
× أغاني الدروب (١٩٦٤).
× إرم (١٩٦٥).
× دمي على كفي (١٩٦٧).
× دخان البراكين (١٩٦٨).
× سقوط الأقنعة (١٩٦٩).
× ويكون أن يأتي طائر الرعد (١٩٦٩).
× اسكندرون في رحلة الداخل ورحلة الخارج (١٩٧٠).
× قرقاش - مسرحية شعرية (١٩٧٠).
× قرآن الموت والياسمين (١٩٧١).
× الموت الكبير (١٩٧٢).
× مراثي سميح القاسم (١٩٧٣).
× إلهي إلهي لماذا قتلتني؟ (١٩٧٤).
× وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم (١٩٧٦).
× ثالث أوكسيد الكربون (١٩٧٦).
× ديوان الحماسة (١٩٧٨).
× أحبك كما يشتهي الموت (١٩٨٠).
× الجانب المعتم من التفاحة، الجانب المضيء من القلب (١٩٨١).
× جهات الروح (١٩٨٣).
× قرابين (١٩٨٣).
× كولاج (١٩٨٣).
× في سربية الصحراء (١٩٨٥).
× شخص غير مرغوب فيه (١٩٨٨).
× لا أستأذن أحداً (١٩٨٨).
× الكتب السبعة (١٩٩٤).

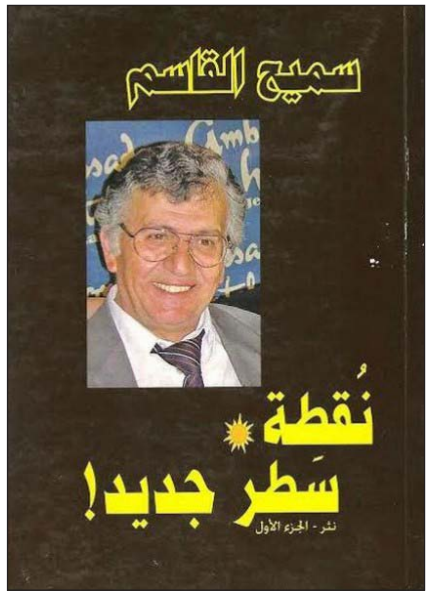

- مؤلفاته الروائية:

× إلى الجحيم أيها الليلك (١٩٧٧).
× الصورة الأخيرة في الألبوم (١٩٧٩).

- مؤلفات النثرية:

× عن الموقف والفن (١٩٧٠).
× من فمك أدينك (١٩٧٤).
× أضواء على الفكر الصهيوني (١٩٧٨).
× الرسائل - مع محمود درويش (١٩٨٩).
× رماد الوردة، دخان الأغنية (١٩٩٠).
× مطالع من أنطولوجيا الشعر الفلسطيني (١٩٩٠).
- ترجمت قصائده إلى الإنكليزية والفرنسية والتركية والروسية والألمانية والأسبانية واليونانية والإيطالية والفيتنامية والفارسية والعبرية واللغات الأخرى.
- حصل على جائزة "غار الشعر" من اسبانيا وعلى جائزتين من فرنسا عن مختاراته التي ترجمها إلى الفرنسية الشاعر والكاتب المغربي عبد اللطيف اللعبي.
- تعرض لحادث سير مروع في سنة ٢٠٠٣ وأمضى تسع ساعات في حال موت سريري. وخرج من هذا الحادث بكسر في كتفه وكسر في قدمه اليمنى ما أورثه العرج.

ياسر عرفات يقبل سميح القاسم

سميح القاسم آخر شعراء المقاومة في فلسطين

فخري صالح

بعد رحيل راشد حسين وتوفيق زياد ومحمود درويش وسالم جبران، والآن سميح القاسم (١٩٣٩- ٢٠١٤)، تكون كوكبة شعراء المقاومة الفلسطينية، الذين تكرست ظاهرتهم في العالم العربي منتصف ستينات القرن الماضي، قد غادرتنا. صحيحٌ أن تلك الظاهرة الشعرية، التي انضوى أعضاؤها جميعاً في إطار حزب راكاح الشيوعي الإسرائيلي (لكنهم كانوا، ويا للمفارقة، مدافعين شرسين عن الوطنيّة الفلسطينية والانتماء القومي العربي)، قد أصبحت جزءاً من تاريخ الشعر العربي في القرن العشرين، لكنّ محاولة النظر إلى المنجز الشعري للصديق الراحل سميح القاسم تتطلّب تعيين موقعه في قلب تلك الظاهرة التي مثّلت بعد هزيمة العرب عام ١٩٦٧ رافعة سياسية وشعرية للفكر القومي الذي تعرّض لامتحان صعب في ذلك الوقت.

والأهمية التي اكتسبتها ظاهرة شعراء المقاومة بعامة، وشعرُ الموهوبين المكرّسين من المنضوين في إطارها (ونخصّ بالذكر هنا محمود درويش وسميح القاسم اللذين واصلا الكتابة الشعرية وتطوير منجزهما والتجريب في دائرة الأشكال الشعرية، وكذلك حافظا على البقاء قريبين من نبض الشارع الفلسطيني والإصغاء للتحولات التاريخية التي ألمّت بالقضية الفلسطينية)، تتجاوز بعدها الفلسطيني إلى المحيط العربي الذي تلقّف هؤلاء الشعراء بلهفة، وبعد طول انتظار، بوصفهم بارقةَ أمل سياسية وشعرية، ربّما.

في المعنى السابق يمكن النظر إلى سميح القاسم كواحد من أبرز شعراء الأرض المحتلة، وشعَراء المقاومة الفلسطينية، إلى جانب محمود درويش وتوفيق زياد. تبرهن على ذلك مجموعاته الشعرية الأولى التي تلهب المشاعر، وتتحدى الاحتلال والعنصرية الإسرائيليتين، وتشدد على الانتماء إلى الأرض الفلسطينية والالتصاق بها، والإصرار على عدم الرحيل عنها، وتؤكد الانتماء القومي العربي للفلسطينيين الباقين على أرضهم عام ١٩٤٨، كما تظهر في الوقت نفسه على تواصلها مع التحولات الشعرية العميقة التي ضربت جسد القصيدة العربية في نهاية أربعينات القرن الماضي.

هذا ما نعثر عليه في دواوين سميح التي ظهرت قبل هزيمة ١٩٦٧: «مواكب الشمس» (وهي مجموعته الشعرية الأولى، ١٩٥٨)، و«أغاني الدروب" (١٩٦٤)، و«دمي على كفي" (١٩٦٧)؛ وكذلك في دواوينه التي تلت الهزيمة وكرّسته واحداً من الشعراء الفلسطينيين والعرب البارزين برغم حداثة سنه في ذلك الوقت: «دخان البراكين»، و«سقوط الأقنعة» (١٩٦٩)، و«يكون أن يأتي طائر الرعد» (١٩٦٩)، و«اسكندرون في رحلة الخارج ورحلة الداخل» (١٩٧٠).

لكن تجربة سميح القاسم الشعرية لم تبق أسيرةً لهذا البعد، المباشر والحماسيّ، بل الشعاريّ أحياناً، لظاهرة شعر المقاومة الفلسطينية، بل رادت بحقّ أقاليم جديدة في الكتابة الشعرية يغلب عليها التجريب والتنويع على عدد من الأشكال الشعرية والتيارات والأساليب المختلفة. فشعر سميح، بدءاً من منتصف سبعينات القرن الماضي، ينتقل من القصيدة الغنائية إلى الخطابية المباشرة إلى البناء المركب وصولاً إلى النثر العادي، ما يجعل قصيدته غير مرهونة لتيار شعري تقليدي أو حداثي بعينه.

هناك إذاً عدد كبير من مجموعاته الشعرية، غزيرة العدد في العقود الأربعة الماضية، تعكس تجريباً متواصلاً في اللغة والنوع الشعري مثل «الموت والياسمين» (١٩٧١)، و«الموت الكبير" (١٩٧٢)، و«مراثي سميح القاسم» (١٩٧٣)، و«ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم" (١٩٧٦)، و«ثالث أكسيد الكربون» (١٩٧٦)، و«أحبك كما يشتهي الموت» (١٩٨٠)، و«الجانب المعتم من التفاحة، الجانب المعتم من القلب» (١٩٨١)، و«جهات الروح» (١٩٨٣)، و«كولاج" (١٩٨٣)، و«سربية الصحراء" (١٩٨٤)، و«الشخص غير المرغوب فيه»، و«لا أستأذن أحداً» (١٩٨٨)، و«الكتب السبعة" (١٩٩٤)، و«خذلتني الصحراء: سربيّة" (١٩٩٨)، و«ملك أتلانتس: سربيّات" (٢٠٠٣)، و«عجائب قانا الجديدة: سربيّة" (٢٠٠٦)، و«كولاج - ٢" (٢٠٠٩)، و«هواجس لطقوس الأحفاد: سربية" (٢٠١٢)...

ويمكن أن نلحظ في عناوين تلك المجموعات الشعرية ابتداعاً لأشكال شعرية وتسميات جديدة لأنواع غير مألوفة في الكتابة الشعرية العربية: مثل «السربيّة»، وهي شكلٌ شعري يقترحه القاسم يمزج فيه بين الشعر والسرد، والمراثي التي يبدو البعد التوراتيّ الإنجيلي حاضراً فيها بصورة لا تخطئها العين، بل والقرآني (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم). لكنه يعود في مرحلة سبعينات القرن الماضي إلى كتابة شعر الحماسة، مصدراً عدداً من المجموعات الشعرية التي تحمل عنوان «ديوان الحماسة» (الجزء الأول ١٩٧٨، الجزء الثاني ١٩٧٩، الجزء الثالث ١٩٨١)، مذكّراً قارئه بدواوين الحماسة العربية التي تجمع شعر الفخر والحروب والنفس المقاتل، وكأنه يعود، لكن على نحو أكثر تقليديّة، إلى سيرته الأولى في كتابة الشعر المقاوم، المباشر، التحريضي الذي ظلّ غالباً على منجزه خلال العقود الثلاثة الأخيرة من حياته الشعرية المديدة (منتصب القامة أمشي: مختارات شعرية، ٢٠١٢).

عن جريدة الحياة اللندنية

سميح القاسم قايض الدم بالدم وأضرم النار في الشعر

لم يكتب سميح القاسم (١٩٣٩ -٢٠١٤) القصيدة الخافتة أو المائلة، كما فعل توأمه ونده في الشعر الفلسطيني محمود درويش بعدما زار الموت وعاد منه بالـ «جدارية». لم يكتب سميح بلهاث خافت ولغة تراوغ وتغامر في الموت كدرويش، برغم أن الموت طرق بابه بشبحه الأكثر توحشاً (السرطان)، منذ أكثر من عامين، بل قام وفتح له الباب، وأجلسه إلى جانبه وقدم له فنجان قهوة، وطلب أن يقرأ بخته (طالعه) في الفنجان. في ديوان «كولاج ٣"(٢٠١٢)، وهو من أواخر إصدارات الشاعر، روح دعابة سوداء قريبة من روح إميل حبيبي في «المتشائل»، الذي قال «ليس لدينا سوى ثقب صغير وعلينا أن نخرج منه». ولا أحد يعرف هذه الروح سوى الفلسطيني الذي في ضحكه حشرجة المعزولين في نفق محمّى، أو داخل شاحنة تائهة في صحراء في رمضاء وعليه أن يضحك لأن صراخه مهدور.

محمد علي شمس الدين
شاعر لبناني

وحين يلتوي سميح لا تعرف هل يلتوي من شدة الألم أم من فرط السخرية. حين كنا في القاهرة، في ملتقى الإبداع العربي ٢٠١٠، نظر إلي سميح بغرته الجميلة، وقال لي: أنا سميح الزرقاوي (نسبة لولادته في الزرقاء من الأردن)، أحد أجدادي من القرامطة، وابني اسمه «وطن محمد». وأردف: وهو ما يغيظ الحواجز الإسرائيلية.

قلت له: أظن أنك تعود بأرومتك إلى عمرو بن كلثوم، صاحب «ألا هبّي...»، ففيك مثله نخوة عصبية، وتحد، وشعرك يتقدم كفيلق أو دبابة، وذكرت له قصيدته «تقدموا تقدموا»... وذكرت أن المؤسس الأول لشعر المقاومة، هو جدنا عمرو بن كلثوم، القائل: « ألا يجهلن أحد علينا..."قال: نعم، «ألا لا يجهلن»... وضحكنا معاً.

تمر الأيام، وتطرد صورة صورة، وفي الأيام الأخيرة، وقد تجاوز العنف الإسرائيلي على غزة، حدود المخيلة، برز وجه سميح القاسم، من خلال الشاشة، وهو يقول: أمشي... وأمشي، إلى آخر الأغنية. لم أنظر إلى وجه سميح المهشم بالسرطان، بل أغمضت عيني على صورته الطفولية التي أحبها: فتى جميل نقي خطيب أليف ساخر ساحر. وحين كان يردد «وأنا أمشي وأنا أمشي "كنت أردد قوله في ديوان «الموت الكبير»: «أنا الغضب \ حديقتي تمتد من سري \ إلى أبعد ما في الأرض من أسرار \ حديقتي تنهار \ لذا فإنني \ سأجدل الإعصار».

صوت خاص

لم يكتب سميح القاسم القصيدة الخرساء، وهي أصعب أنواع الكلام، ولا القصيدة البيضاء، بل القصيدة المجروحة، و دمها يرشح من أطراف الحروف، وصوته يصعب أن نخطئه بعد مسيرته الطويلة، حتى ولو اشتبك أحياناً مع أصوات أخرى من شعراء المقاومة الفلسطينية، (معين بسيسو، محمود درويش، توفيق زياد، حنا أبو حنا، احمد دحبور...)، فثمة شحنة من الغضب مزروعة كلغم في أصل كل قصيدة، من ديوان «دمي على كفي" (١٩٦٧) و«دخان البراكين" (١٩٦٨)، حتى مجموعته الأخيرة «كولاج ٣" (٢٠١٢)، ولعل الشاعر قد رش شيئاً من النار على هشيم الكلمات المهزومة للشعر العربي، وعلى المناحات الطويلة، من ديوان «نهر الرماد "لخليل حاوي، إلى قصيدة «شعراء الأرض المحتلة» لنزار قباني، أي من خمسينات القرن الفائت حتى سبعيناته.

إن الشعر النقدي المبدع لهؤلاء الشعراء، ومنهم مظفر النواب، وأمل دنقل، كان يراوح بين الشتيمة المعبرة وينبش قبر الأمة العربية (البائدة) والدعوة للانتحار احتجاجاً. ولعل قول خليل حاوي «ماتت البلوى ومتنا من سنين» يتردد مع قول نزار «يطأ الإرهاب جماجمنا، ونقبل أقدام الإرهاب»، مع قول مظفر «يا أولاد ال... هل تسكت مغتصبة؟»... ويعود خليل حاوي فيختصر المشهد برمته بقوله «عمّق الحفرة يا حفار...». هذا الشعر المعبّر عن الهشاشة التاريخية للأمة. كان في جانب منه لسان حالها. وكانت قوتها الكامنة والمستورة في الوجه الآخر المعتم للقمر، يسترقها شعراء آخرون مبدعون وإستراتيجيون مثل بدر شاكر السياب (مثالا)، وجاء شعراء الأرض المحتلة ليتوسطوا المشهد. رش سميح القاسم على الهشاشة التاريخية العربية، شيئاً من النار، وحرك لسانها بخيط من الغضب، ثم حاول أن يوظف الموت على باب القصيدة والقصيدة على باب الغضب، والغضب على باب الانتقام، والانتقام على باب المظلومية.

واليوم، بعد أن اكتملت حياة سميح القاسم بالموت، فإنه بهذا الموت الجسدي، قد فتح كتابه (شعره) كتجربة من تجارب الشعر العربي الحديث والمعاصر تستدعي القراءة. وقراءة هذا الشعر الغزير والمتنوع أسلوبياً ولغوياً، تضعنا أمام تفاصيل وحوادث وأماكن معروفة، تقطعها بروق جارحة، على امتداد القصائد، فيظهر على أنه شاعر ينابيع للميثولوجيا أو للثيولوجيا أو للتواريخ المتنوعة التي يستلهمها، فهو على هذا الأساس شاعر ذو اختلاط عجيب، غنائي وسردي حكائي، واقعي، بالملموس والمحسوس وميثولوجي، يستعمل الأوزان الخليلية المغلقة أو المطلقة، كما يستعمل النثر السائر، والكلمات الأجنبية، ومقاطع من الكتب المقدسة من التلمود إلى العهد الجديد إلى القرآن.

ويؤسس بعضاً من سربياته (أي قصائده الطويلة التي تتقدم كأسراب) على أساطير متنوعة، تارة يأخذها من الميثولوجيا الإغريقية، أو من أوروبا في القرون الوسطى، كما هي الحال في سربية «كلمة الفقيد في مهرجان تأبينه (مؤسسة الأسوار، عكا ٢٠٠٠) أو يأخذها من الأساطير السورية والكنعانية. وهو يصهر كل هذه العناصر المتباينة في بوتقة القصيدة، ويستنبت من اليوميات القريبة والسياسات المعروفة الراهنة ما يشبه أسطورة الواقع الفلسطيني بكل تفاصيله الدامية والثائرة، يقدمها مشبوكة مع ما يستدعيه هو إلى ساحتها من أساطير وميثولوجيات وأديان.

و هو في الكثير من أناشيده الدامية، شاعر ذو روح لوركية (نسبة إلى غارسيا لوركا)، نشأت قصائده واندلعت في بؤرة التوتر والغليان التاريخيين على أرض فلسطين، وشرارتها ذات برق صوري ولغوي مباشر أحياناً، ومجازي رمزي في أحيان أخرى، وهي ذات خطف وإلحاح في الخطف، من خلال ضغط الكلمات الكثيرة ودفعها في مجرى ضيق.

يقول: «إلى أين هذا الذهاب الإياب الحضور الغياب السراب الخراب العذاب؟» ويقول: تعبت علمت جهلت سألت أنا هملت أم سميح؟" (من ديوان كلمة الفقيد...).

التاريخ الفلسطيني شعراً

يكاد سميح القاسم، من شدة غزارته في الكتابة، يحول تفاصيل حياته وكلماته وأفكاره، إلى منظومات شعرية، يسرد فيها ما يرى، أو يقول ما يعيش.

ولعل الكثير من قصائده، يحمل سمة اليوميات الشعرية، يقول: «قري يا عيني مارست التاريخ \ قري يا عيني أدمنت التاريخ»... حتى لكأنه يخشى من محو الذاكرة الفلسطينية فيذكرها في أدق يومياتها وتفاصيلها. يقول: »القواد المتكئون على الأسطول السادس والسفراء الضباط التجار الوكلاء الخبراء \ كانوا ثقباً تتسلل منه الجرذان الأميركية \ والسلع الأميركية \ والنفاثات الأميركية \ وصواريخ الأطلنطي المعروفة والسرية" (ديوان الموت والياسمين). و هو في السرد حكائي، نثري، وغالباً ما يلجأ إلى ترويدات شعبية من الفولوكلور الفلسطيني... ما يقربه من لوركا في «الأغاني العميقة».

أخيراً نلاحظ أن طواعية الكلام تقرب القاسم من الجمهور العام، ويقترب في قاموسه من نزار قباني، لكنه في أحيان كثيرة، يظهر على أنه شاعر فنتازيا كلامية، ويخترط مآسيه بالسخرية... وبنيته الإيقاعية مركبة... ولعله من أجل هذه الفنتازيا بالذات، والسخرية، جعلته سلمى الخضراء الجيوسي، شاعراً ما بعد حداثي.

عن جريدة الحياة اللندنية

لوركا الفلسطيني بين بحر عكا وصحراء النقب

خليل صويلح
كاتب اردني

انهار أخيراً العمود الثالث في بيت الشعر الفلسطيني المقاوم. رحل توفيق زيّاد باكراً، ثم لحق به محمود درويش، وها هو سميح القاسم (١٩٣٩-٢٠١٤) ينهي المعزوفة بضربة مؤثرة. «شعراء الأرض المحتلة»، هكذا تلقينا الحصة الأولى لدرس النشيد، بانتباه وحماسة ونشوة، فتعرّفنا عن كثب إلى صورة فلسطين من جهة البرتقال والزيتون والبرقوق. رائحة ستهبّ على الدوام مع كل قصيدة تعبر الحدود والأسوار.

في غياب توفيق زيّاد، ومغادرة محمود درويش بلاده، بقي سميح القاسم في الداخل الفلسطيني «مثل السيف فردا»، بنبرة عالية لا تقبل المساومة، مازجاً الروح الكنعانية بالنشيد العالي في سبيكة شعرية تستدعي النفير، وبلاغة الأسلاف، وروح الرفض، إذ كانت قصيدته بمثابة وثيقة في تمجيد الجغرافيا الأم التي لطالما كانت بوصلته إلى الحرية. الشيوعي الذي انتهى عروبياً صلباً في زمن الهشاشة والمقاولات الوطنية، وصداقة الأعداء، شذّب نصّه من شوائب الوهم الأممي، وذهب «منتصب القامة» إلى مشتله الأول لإعادة ابتكار الحبق في حقول البلاد المدماة، فهنا قصيدة غير مياومة، إنما تمدُّ جذورها عميقاً في التراب، على هيئة وشم لا يزول. اوركسترا تزاوج بين الكمان والناي في حداء طويل، وبشارة قادمة، كأن كل الهزائم والكبوات ومراتب اليأس، لم تثر غباراً في طريقه إلى الجلجلة، ولم تخفت صوته الناري في تأصيل النشيد الفلسطيني المقاوم.

كانت قصيدته وثيقة في تمجيد الجغرافيا الأم التي لطالما كانت بوصلته إلى الحرية هو سليل المنابر والهتاف والإيقاع، قبل أن تخلو المنصة من شعرائها الكبار، إذ لا مسافة فاصلة بين القصيدة والأغنية، حين اختار اسم «أغاني الدروب" عنواناً لمجموعته الشعرية الأولى (١٩٥٨). وسوف تزداد شحنة الغضب، تبعاً لزمهرير الشعر والرفض. لهذه الأسباب سيكتب باطمئنان «دمي على كفي»، و«لا أستأذن أحداً»، إلى نحو ٦٠ عنواناً آخر، تمثّل مسالك حبره الموزع بين أجناس إبداعية مختلفة، في مفكرة ضخمة للأمل بتراب آخر لا تدنسه أحذية الأعداء، وهوية راسخة لا يلوثها حبر المنفى والحنين. وسوف يدافع عن مساره الشعري الغارق في المباشرة بقوله «هناك سوناتا سيئة ومارش جيد». في وقت لاحق، سيكتب سوناتات جيدة أيضاً، فليس كل ما كتبه القاسم تحت بند «شعر المقاومة»، أو في باب المديح، كما يأخذ عليه بعضهم. التاريخ الدامي لبلاده كان بوصلته المتحوّلة في أرشفة الألم العام وشجنه الشخصي، وقبل كل ذلك علاج الجرح المفتوح بملح الكلمات. هكذا تبزغ حداثة نوعية في منجزه الشعري الشاسع، جنباً إلى جنب مع روحه الهوميروسية الهائمة بين بحر عكا وصحراء النقب، كما يتجاور «ديوان الحماسة» مع عنوان نافر مثل «أرض مراوغة. حرير كاسد. لا بأس»، أو «كولاج». وسوف نقع على جوانب أخرى من سيرته في كتاب «الرسائل»، الرسائل المتبادلة مع رفيق روحه محمود درويش في تلك الحوارية المدهشة بين الوطن والمنفى، وبين الصلابة والحنين، والضمير والجرح، وكتاب الإقامة، وكتاب الهجرة. يكتب محمود درويش في إحدى رسائله: «لم يحدث في تاريخ السطو البشريّ، يا عزيزي، ما يشبه هذا السطو، كأن يرافق الطرد من الوطن بمحاولة الطرد من الوعي والهوية. كأن نعجز عن قول ما هو مقول في الواقع بطريقة لا تخرّب توازن الكرة الأرضية. فعندما يتحوّل الاحتلال إلى «وطن وحيد» للمحتلّ، تصير مطالباً بأن تعتذر عن كلّ سليقة، وبأن تبرز أناقة قتلك بخصوصية لا تؤذي سمعة الخنجر المغروس في لحمك».

ويقول سميح القاسم في رسالةٍ أخرى: «لسنا غصناً مقطوعاً من شجرة هذه الأمة. نحن حرّاس أحلامها وسدنة نارها الطاهرة». لاحقاً، سيسأله محمود درويش بنبرة يائسة: «أين قبري يا أخي؟ أين قبري»، فيجيبه سميح: «لا تسألني أين قبرك. ما دام هذا المهد قضية معلّقة فسيظل القبر سؤالاً محرجاً يتيم الإجابة». سننتبه إلى أنّ حديث الموت اقتحم نصوص القاسم باكراً، ألم يكتب «قرآن الموت والياسمين»(١٩٧١)، و«الموت الكبير"(١٩٧٢)، و«إلهي إلهي لماذا قتلتني؟"(١٩٧٤)، و«سأخرج من صورتي ذات يوم»(٢٠٠٠).

كأن حياة هذا الشاعر منذورة للنكبات، فمن الاعتقال في سجون الاحتلال، إلى الإقامة الجبرية، كان على وحش السرطان أن يداهمه في مبارزة طويلة. يسأله علاء حليحل في مقابلة شاملة «ألم يكسرك مرض السرطان؟»، فيجيب: «لم انكسر ولكن التوى في شيء ما، بلا شك، ولكن داخلي لم ينكسر». بهذه الإرادة الصلبة، عاش سميح القاسم حياته المتشظيّة بين برازخ كثيرة، وعبرت قصيدته الحدود بكامل غضبها وبلاغتها وروحها المتمرّدة. وسنتذكر ذلك المشهد الاستثنائي خلال زيارته دمشق قبل سنوات، حين وطأت قدماه مخيم اليرموك قبل نكبته الأخيرة، فعبرَ المخيّم محمولاً على الأكتاف مسافة سبعة كيلومترات، كأن أهالي المخيم كانوا يودون ردّ الدين له بقصيدة مماثلة. وربما في مثال آخر، علينا أن نستعيد ما خاطبه به محمود درويش: «لو كان قلبي معك، وأودعته خشب السنديان، لكنت قطعت الطريق بموت أقل». لكن هل هي المصادفة وحدها أن يرحل صاحب «كتاب القدس» في اليوم نفسه الذي رحل فيه الشاعر الأندلسي فريدريكو غارسيا لوركا؟

عن جريدة الاخبار

لم يكن مستغرباً تلك العلاقة الملتبسة بين سميح القاسم (١٩٣٩ - ٢٠١٤) ومحمود درويش (١٩٤١ - ٢٠٠٨)، فهما لطالما تخاصما وتحابا، تقاتلا وتراسلا. ولا ريب في أنّ جناح البرتقالة الثاني (أو الأول) للشعر الفلسطيني، عرف ذات يوم بأنّ منافسه الأبرز فلسطينياً سيرحل بصمت وهدوء ذات يوم، وستكون له (هو) غلبة وإن «زمنية» على الساحة الشعرية. لكنه مع هذا لم يكن سعيداً، فغياب المنافس لا يعني إلا أن الساحة أرضٌ بوار. هكذا صنّفها القاسم يوم رحيل درويش، فنعاه، ونعى الأرض التي استحالت بواراً بعد رحيل «شاعرٍ خاصب».

عبدالرحمن جاسم

سميح القاسم ومحمود درويش... نصفا البرتقالة الفلسطينية

عاش القاسم حياةً مليئة بكل شيء، شأنه شأن درويش. وإن لامس محمود النجوم أكثر، فلأنّه طرد من فلسطين، وتجوّل وسافر، ومارس حياةً شخصيةً صاخبةً، وسياسيةً أكثر صخباً، نزق الشعر ونزفه، لذلك كان طبيعياً أن يحصّل شهرةً أكبر من شاعري فلسطين المجايلين له: توفيق زيّاد وسميح القاسم. كل ذلك لم يرهق سميح كثيراً، ولم يفكّر به أكثر، فهو في رسائلهما المشتركة التي عنوناها «الرسائل»، حكى كلام «الصديق للصديق» وليس الشاعر للشاعر فحسب. كانا مجرد فلسطينيين يتبادلان اطراف الحديث بعمق وعلانيةً.

اعتبرت سلمى الخضراء الجيوسي بأنّه «الوحيد الذي تظهر عليه ملامح شعر ما بعد الحداثة»

الشاعر المولود في الزرقاء في الأردن الذي واجه «الإسكات" منذ لحظات حياته الأولى حين كاد ركاب القطار العائد إلى فلسطين خلال الحرب العالمية أن يقتلوه. وهو إذ رضيع. لإسكاته خوفاً من طائرات الألمان، قال يومها: «حسناً لقد حاولوا إخراسي منذ الطفولة سأريهم، سأتكلّم متى أشاء، وفي أيّ وقت وبأعلى صَوت، لنْ يقوى أحدٌ على إسكاتي». وهو ما فعله بشكل مباشر. لن يسكته أحدٌ بعد اليوم، سيرفع الصوت خفاقاً ضد الصهاينة في كل مناسبة، ما حدا بهم إلى رميه في أكثر من زنزانة ووضعه في الإقامة الجبرية مرات عدة ومنعه من السفر مرارا. هذه العوامل أثّرت كثيراً في «شعريته»، وهو ما افتقده شعر محمود درويش بشكل مباشر وفق ما يشير كثيرٌ من النقاد. الاحتكاك المباشر واليومي مع المحتل، يجعلك أكثر حدةً، ويقرّب شعرك من أذهان من تريد مخاطبتهم. ظلت قصائد القاسم قريبة المآخذ، وإن لامست جوهر الشعر نفسه. أما قصائد درويش التي أعقبت رحيله من فلسطين (وحتى عودته إليها لاحقاً وإن لم يدخل قريته أبداً)، فتبدو أكثر «حداثة» حتى ليشير كثيرون إلى أنّ شعر درويش هو الأحدث بين معاصريه ولو خالفت الباحثة والكاتبة سلمى الخضراء الجيوسي هذا الأمر بوصفها سميح القاسم بأنّه «الشاعر الوحيد في الوطن العربي الذي تظهر عليه ملامح شعر ما بعد الحداثة». شعريا، امتاز درويش بتقديره الصائب للمرحلة ربما بسبب تجواله بين العواصم سياسياً وثقافياً، وهو عنصر كان يغيب عن شعر القاسم لضلوعه في المواجهات اليومية المباشرة مع الصهاينة.

عرف القاسم الشهرة وإن بدرجةٍ أقل خارج فلسطين، فهو لم يخرج من هناك إلا مراتٍ قليلة وبصعوبة بالغة، لكن من ينسى لقاءه بالرئيس السوري الراحل حافظ الأسد (ضمن وفد من دروز الداخل الفلسطيني في ٨-٨-١٩٩٧) الذي أسر له بأن معظم جنود الجيش السوري يحفظون قصائده، وبأنها تُدرَّس ضمن المنهاج التعليمي السوري الرسمي. في الوقت عينه، كان درويش يأخذ المجد بكامله، يزور الرؤساء ويجتمع بالقادة ويؤسس لمرحلة شعرية جديدة في الشارع العربي: كان النجم الوحيد للشارع الشعري في وطن عربي بأكمله. قاعات تمتلئ حتى آخرها، فتيات يتّهامسن لمجرد رؤيته، وفوق كل هذا قيمةٌ سياسية مرتفعة من خلال علاقة أكثر من رائعة مع «منظمة التحرير الفلسطينية». لم يعرف القاسم علاقة مماثلةً مع منظمة التحرير، فلقاءاته مع «الختيار" (أبو عمار) كانت صاخبةً دائماً، وعرفات كان مولعاً بالاستعراض: مرةً، حمل مسدسه والشاعر يلقي قصيدةً على المنبر، اقترب منه وقال بصوت مرتفع: «هذا مسدسي صوبني به إذا أنا أخطأت». الشاعر المتوثب الذكي عرف كيف يتلقف الفكرة: «أنا أصوبك بكلماتي وقصائدي»، هكذا أجاب وهكذا انتهت القصة كما العلاقة مع المنظمة.

أما الجمهور، فتلك حكايةٌ أخرى مع القاسم. هي تلك العلاقة المباشرة مع المحسوس/ المسموع والمرئي/ المشاهد، فالظهور الشعري المباشر يظل ذا أثر كبير (خصوصاً في تلك المرحلة التي لم تكن تمتلك أياً من تكنولوجيا هذا العصر). كان وجود درويش بشكل فعلي في بيروت (أو أي عاصمة أخرى كعمان والقاهرة والرباط) يجعل الإقبال عليه أكثر من غيره، بسبب شعره وكاريزماه وجاذبيته، وبالتالي كان يسحب البساط من تحت أي منافس مهما كانت أهمية «المُقال». لم يزر القاسم عاصمة الشعر العربي «بيروت»، ولم يقدّم أية أمسية فيها (برغم محاولات رئيس «الحزب التقدمي الاشتراكي» وليد جنبلاط لإحضاره إلى بيروت عام ٢٠٠١).

في الإطار عينه، كرّس غناء مرسيل خليفة لمحمود درويش الشاعر الفلسطيني كأيقونة، ذلك أمرٌ لا شك فيه، حتى إنّ كثيرين ما زالوا حتى اللحظة مقتنعين بأن «منتصب القامة» هي لدرويش لا للقاسم.

المدى 9 العدد (3157) السنة الثانية عشرة - الأربعاء (27) آب 2014

بغداد..

قصيدة للشاعر سميح القاسم

بايَعتُ عيدَك، واستثنيتُ أعيادي
مُستشرفاً غدَ أبنائي وأحفادي
وكانَ نذري دمي قُربانةً سَنَحَت
على مذابحِ آبائي وأجدادي
وقُلتُ لاسمك (كُن رؤيا) فصارَ رؤىً
لطارفِ المجد موصولاً بأتلادِ
وأنتِ ما أنتِ عبّاسيّةٌ ملكتْ
شمسَ الشموس بتاجِ اللّه والضّادِ
ووزّعتْ نورَها في كلِّ غاشيةٍ
من الظّلام بمشكاةِ الدمِ الهادي
وشعَّ قرطاسُها روحاً ومعرفةً
على العوالم من خافٍ الى بادِ
هُنا المنابرُ من عُربٍ ومن عَجَمٍ
هُنا المنائرُ هَدْيُ الرائحِ الغادي
أصابعُ الناس أقلامٌ وأحرُفُهم
بَوحُ اللغات بحُلم الصابيءِ الصّادي
من المشارقِ أسفارٌ مذهّبةٌ
إلى المغاربِ مرصاداً لمرصادِ
ودجلةٌ عَسَلٌ تغري لذائذُهُ
سمنَ الفراتِ بنحلٍ بينَ أورادِ
وللنخيل عيونُ التّمرِ شاخصةً
لسومرٍ بابلٍ آشورَ أكّادِ
ليعربٍ جامحٍ شدّتْ نوازعَهُ
بوّابةُ الشرقِ أمداءً لآمادِ
فللخيولِ صهيلٌ عبرَ أورميةٍ
وللسيوفِ صليلٌ خلفَ أورادِ
مصاحفٌ ورماحٌ للمدى نشرتْ
إيمانها النورَ في أسداف إلحاد
وشرّعتْ علماً واستنهضتْ أُمماً
وأشهرتْ قلماً في وجهِ جلاّدِ
وللقصائد كوفيٌّ يتيهُ بها
وكم تتيهُ إذا قالوا: من الشادي؟
وشهرزادُ صلاةُ الليل حكمتُها
لخدِّها طالما حنّتْ مخدّتُها
وأنتِ كاهنةَ الإلهام شاهدةٌ
على بدائعَ أمثالٍ وأضدادِ
كنوزُ كفّيك أمجادٌ مخلّدةٌ
زكاتُها رَدْفُ أمجادٍ بأمجادِ
أعلى الرشيدُ صروحَ العلمِ وانكفأتْ
على المبعثَرِ من علمٍ وإرشادِ
وملءَ نهريكِ حبرُ الروحِ سالَ دماً
وسالَ حبراً دمي في بحرِ أحفادِ
وكنتِ ما كُنتِ من حُرٍّ لطاغيةٍ
عبرَ العصورِ وعُبداناً لأسيادِ
تداولتْك صروفُ الدهر عاصفةً
ورنّحتْك كفوفُ الشرِّ خاطفةً
ومن أَساورِ عزٍّ غرّدتْ ذَهَباً
إلى شُفوفِ حريرٍ زغردتْ طَرَباً
وللمغولِ زحوفٌ لا لِجامَ لها
وللتتارِ سيوفٌ دونَ أغمادِ
وللعلوجِ من الأجلافِ زعنفةٌ
تبدّلُ الحالَ إفساداً بإفسادِ
وأنت عاريةٌ في السِّجنِ داميةٌ
وأنت كابيةٌ في القيدِ باكيةٌ
ما أَنجدتْ يَمَناً قيسٌ ولا ذرفتْ
ثمودُ دمعةَ محزونٍ على عادِ
والأهلُ أهلك لم تنبسْ لهم شفةٌ
بغيرِ صمتٍ لدى أجراسِ حُسّادِ
لِمَ ازدهرتِ وبيدُ الشرقِ قاحلةٌ
وكيفَ صار حريراً ثوبُ لُبّادِ؟
وما نهوضُكِ والأجفانُ مغمضةٌ
على الرمال، وماذا صوتُكِ الحادي؟
وما طموحُكِ والآمالُ خائبةٌ
وما صعودُكِ والأعرابُ في الوادي؟
يا حرّةً لوّثَ الطاغوتُ زَهْوَتَها
ومُهرةً دنّسَ الكابوي صَهْوَتَها
لكِ الأجانبُ أسياداً متى رغبوا
وكمْ يجانِبُ من أهلٍ وأولادِ
تفرّقوا شِيَعاً وافرنقعوا زُمَراً
وأسْرَفوا عبثاً في شِحِّ إرفادِ
ولا تُجَمِّعُهُم في الويلِ جامعةٌ
نادي عليهم إذن يا أُختَهُم نادي!
وصاحبُ الجاه في مستنقَعٍ نَتِنٍ
يتيهُ بالجاه فيما يسخَرُ النادي
عليهِ من حُلَلِ الأشباهِ ضافيةٌ
ودأبُهُ الرقصُ مشدوداً بأوتادِ
وحين يخطبُ فالأقوالُ في وادٍ
وحينَ يفعلُ فالأفعالُ في وادِ
حصانُ طُروادةٍ صالونُ منزلِهِ
وكعبُ آخيلَ في جيشٍ وقوّادِ
وصاحبُ الجاه رَخْوٌ حينَ تَصفَعُهُ
كفُّ الغريبِ وفينا كابنِ شدّادِ!
وأيُّ جاهٍ نجا من جاهِ عصْمَتِهِ
وحولَهُ حَشْدُ أزلامٍ وأكْدادِ
جزَّ الرقابَ فلم يُشبعْ هوايتَهُ
جزُّ النواصي وتعليقٌ بأعوادِ
واستصغَرَ الخلقَ معتدّاً بسطوتِهِ:
لم يخلقِ اللّه أمثالي وأندادي!
بغدادُ بغدادُ حُبّي قاتلي فمتى
يُتيحُ حُبُّكِ تَكْفيني وإلحادي؟
في الكاظميّةِ لي شمسٌ أُغازلُها
وفي الرّصافةِ شُبّاكٌ لإنشادي
وشاغلي رَصْدُ أنقاضي مُبعثَرَةً
في راحلينَ عن الدنيا وأوفادِ
غرستُ في تربةِ الأحزانِ لي أملاً
وما سوى الحزنِ إصداري وإيرادي
يُقتّرُ الدّهرُ في حظّي وفي هِبَتي
وحظُّهُ من هباتي جودُ أجوادِ
وللفراتِ أبٌ قبلي قضى وَجَعاً
في مَنْفَيينِ بلا صَخَبٍ وَعُوّادِ
بريدُ غُربتِهِ في غُربتيهِ بكى
رسائلَ البينِ من بُعدٍ لأبعادِ
بَدّلتِهِ جسداً صَلصالَ طاغيةٍ
ومن يُبدِّلُ أرواحاً بأجسادِ؟
وأنت من سَلَفٍ أودى به خَلَفٌ
وكم شقيتِ وكم حاولتِ إسعادي
وأنتِ لي أنتِ لي آتيكِ مُبتهلاً
دربي تُرابٌ فلم أطمعْ بسجّادِ
وأنتِ زادي على بُخلِ الحياةِ وفي
عَسْفِ المجاعةِ يا بوركتِ من زادِ
وخُبزُ روحيَ في كفّيكِ مختَمِرٌ
وماءُ عينيَّ من بستانكِ النادي
وأنتِ ملهمتي من قبلِ مُلهمتي
لتَمْرِ عينيكِ تَرْتيلي وتَرْدادي
ومن شناشيلكِ اصطادَ الشّجا كَلِماً
صاحتْ لآلئُهُ: بوركتَ صَيّادي!
وصحتُ من وجعٍ في القُدسِ يُشعلُهُ
أنّي استغثتُ فغضّ السّمعَ نُجّادي
وجُرحُكِ الحيُّ من جُرحي ومُعتَصَمي
لا يستجيبُ وغضَّ الطّرفَ أشهادي
وكم عَدَدْتُ ملايينا لها نَسَبي
فلَم تُقِلْني حساباتي وأعدادي
وَكَمْ أَرِقْتُ على نومٍ يُحاصرني
خَلفَ الحصارِ وكَمْ أَرّقتُ جلاّدي
ويعلمُ اللّهُ لم أُغمِضْ على مَضَضٍ
عينَ الكفاحِ ولا أخلفتُ ميعادي
قَصَدْتُ وجهكِ مسكوناً بمحنتِهِ
وخابَ قصدي وما خيّبتُ قُصّادي
منّي التقرّبُ للمحبوبِ محتسباً
شرورَ صدّي وإفرادي وإبعادي
ويذبُلُ الحبُّ مأسوراً ونُضرتُهُ
طَلْقاً تدومُ إلى آبادِ آبادِ
وأينَ قلبُكِ من كفٍّ تُهدهدُهُ
ودونَهُ مبضعٌ في كفِّ فَصّادِ
تقودُهُ طغمةٌ للباطشينَ بهِ
وكان قلبكِ حرّاً غيرَ مُنقادِ
شبعتِ أَسراً وإذلالاً وتضحيةً
ولافتدائكِ قلبي غارثٌ صادِ
ومن نعيمِ الهدى علماً وعافيةً
إلى جحيمِ الرّدى في قبضةِ العادي
بغدادُ بغدادُ ناري ألفُ لاهبةٍ
وبينَ جنبيَّ قلبُ ألفِ وَجّادِ
أأستعيدُ بما أسلفتُ خارطتي
وهل أُجدِّدُ باسمِ اللّه ميلادي؟
وأنتِ ما أنتِ عبّاسيّةٌ سُبيَتْ
بغدادُ أنتِ ولكن أينَ بغدادي؟!

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

روحه عانقت بغداد... تحت شمس الله

حسام السراي

ارتبط اسم سميح القاسم لدى جمهور من القرّاء العراقيّين بقضية العرب الكبرى: فلسطين، حيث الجرح النازف الذي يمتدّ طوله من المشرق إلى المغرب، غائراً وعميقاً في ضمير كل إنسان عربي. وليس ببعيد اختيار اللجنة العليا للاحتفاء بـ«بغداد عاصمة الثقافة العربيّة ٢٠١٣» صاحب «أغاني الدروب" لتكريمه في حفلها الختاميّ في آذار (مارس) ٢٠١٤.

لكنّه بعدما عبّر عن سعادته الكبيرة، اعتذر حينها عن عدم الحضور بسبب «حالته الصحيّة». يومها قال: «بطبيعة الحال، أسعدني هذا الموقف كثيراً. وبغداد ليست مدينة أخرى أو عاصمة أخرى، فهي عمق حضاري، عربي وإسلامي متميز جدّاً. بغداد هي بغدادي الشخصية وحبّها متأصل داخلي برغم كل الظروف السياسية والتقلبات، فبغداد تبقى بغداد كما دمشق والقاهرة والقدس، عواصم في الروح والوجدان والحلم العربي الموحد، أتمنى أن تستعيد نشاطها وموقعها الصحيح تحت شمس الله».

واختيار الراحل لمفردة «الشمس» في تصريحه عن بغداد، ربما هو استعادة لأيقونة شعرية خلّدها السياب في قصيدة «غريب على الخليج». رغم ما تبثّه على الأرض العراقيّة من حرارة وسموم، هي «أجمل من سواها»، حالها من حال الظلام الذي امتدحه رائد الحداثة الشعريّة (١٩٢٦-١٩٦٤). والمعروف أنّ للقاسم مجموعة شعريّة باسم «بغداد" صدرت عن «منشورات إضاءات" (مطبعة الحكيم، الناصرة، ٢٠٠٨).

قصيدته «أصوات

من مدن بعيدة" مدرجة في المناهج الدراسية وأمام كلّ قضية كيانية ندافع عنها، ضرائب لا مفر من إيفائها. القاسم شاعر «القضية الفلسطينيّة" و«العروبة»، وهذا الالتزام لا بدّ من أن يأخذ مأخذه من فنية الشعر وتحرّر الشاعر من قوالب تفرضها المواقف الكبرى، حين تبدأ سيرة الشاعر وتنتهي عند الموضوع نفسه، بما تحمله القصائد من حس ثوري يجعل مبدعها يفكر في الآلاف المغيبين وبالأطفال المضيّعين وبالأوطان المستباحة، فلا يمكن للبناء الفنيّ إلا أن يكون إطاراً لجميع هذه النكبات والانكسارات، حيث انكساراتنا نحن العرب جميعاً، ولا سبيل للغة إلا أن تنطق بأصوات المقهورين مثلما تقول قصيدته «أكثر من معركة»، فالعربيّ - الفلسطيني مجبر على خوض المعارك أو مجبول عليها، وخوفه مقيم من سكين الغدر!

«في أكثر من معركة دامية الأرجاءْ/ أشهر هذي الكلمات الحمراءْ/ أشهرها.. سيفاً من نار/ في صفّ الإخوة.. في صفّ الأعداء/ في أكثر من درب وعْر/ تمضي شامخةً.. أشعاري/ وأخافُ.. أخاف من الغدر/ من سكين يُغمد في ظهري..». لا مفر أمام الشاعر سوى الدعوة إلى القتال، أليس هو ابن لأرض مغتصبة، كما في قصيدته «أصوات من مدن بعيدة»: «يجيئون، قلت، على عربات قديمه/ تئن بأثقالها الخيل.. خيلُ الجريمه/ (يجيئون ليلا)/ فهاتوا الهراوات... هاتوا المشاعل/ من الغرب، قلت لكم، فافهموني/ وألقوا المسابح للنار/ ألقوا غبار القرون/ وقوموا نقاتل!..».

ولعلّ القصيدة المشار إليها هي نفسها الموجودة في مناهج الدراسة الاعدادية في العراق. ولا تتيح أجواء رثاء الرموز في الثقافة العربيّة أي مجال لإثارة أسئلة حساسة ومهمة عن سيرهم ومنجزهم، بطرح موضوعي وتقييم فني، منها عدم قدرة كثيرين منهم على الابتعاد عن الزعامات التقليدية والدكتاتوريات العربيّة.

من مجموعة «بورتريه ذاتي» (٢٠٠٣) للفنان الفلسطيني طارق الغصين

سـميح القاسـم و (القلق من ظل السـكين على جسـد التفاحة)!

شاكر فريد حسن

احتضنت مدينة حيفا، عروس البحر ومدينة الكرمل وبلد القسام، هذا الاسبوع، امسية احتفالية تكريمية للشاعر الفلسطيني الكبير سميح القاسم، نظمتها دار "راية" للنشر لصاحبها الشاعر بشير شلش، وذلك لمناسبة صدور سيرته الذاتية،وتقديراً لعطائه الشعري والادبي ومسيرته الابداعية والنضالية المتواصلة منذ خمسينات القرن الماضي وحتى اليوم.

في هذه الامسية، التي عاد فيها القاسم بشاله الاحمرالى "حيفاه"،التي قضى فيها اجمل ايام شبوبيته وربيع عمره، محرراً في صحافة الحزب الشيوعي، صارح جمهوره ومحبي شعره بحقيقة اعتلال جسده بفعل ذلك المرض اللعين، الذي ينهش الجسد ويفتك بالقلب والروح.. فقال: "لا حاجة للنكد،فالجسد يمر بظروف صعبة، وهذا اللقاء العائلي افضل من العلاج الكيماوي".

وبدا "ابو وطن" منهكاً متمايلاً كالفراشة، برغم روح الدعابة والفكاهة التي تميزه،وابتسامته الدائمة للحياة، ولم يخف قلقه من "ظل السكين على جسد التفاحة" كما جاء في قصيدته الرقيقة الانسيابية العفوية الموسومة "مستشفى"، التي القاها خلال الامسية، وتذكرنا ببواكير قصائده ذات الوضوح والشفافية.

وفي هذه القصيدة يصور عشقه وتشبثه بالحياة وتمسكه بالامل والتفاؤل، ويبكي على الشباب الضائع "وداعاً يا ايام شبابي"، ويصول ويجول في اماكن ومواقع وطنه،مستهلاً بجاره وادسلامة، مشيراً الى عشقه "رائحة الكعك الطالع للتو من الافران في بيت المقدس" وحالماً بالعودة الى بيسان، وانبهاره بملاحم وقصائد شعراء الحرية، وحبه لـ "عسل البطيخ البطوفي" و "التبغ الفسوطي المعلاوي" و "زيت الزيتون الراماوي" و "العرق الزحلاوي" و "عصير الليمون المصري في نكهة عبد الناصر"، ثم يحلق في فضاء الثورات العربية هاتفاً لـ "ربيع الثورة الساطعة في تونس" و "الغضب البوعزيزي" و "ملهمات ساحة رابين وشارع وول ستريت" و "ميادين المدن الصينية" و "الارياف الهندية".

كذلك يستعيد سميح القاسم في قصيدته ايام الصبا والشباب وافتتانه بالجمال والجميلات والساحرات وغطرسة عطرهن، مؤكداً ولعه باغاني واناشيد الحب والهوى و "مواويل حلاقة عرسان الزفة وصبايا الحنا" و "روائع بيتهوفن" واغاني الدبكات الشعبية، واجادة الرقصات الصالونية. ولم ينس تأكيد حبه للزوجة والابناء "في نعمة جدران البيت" وتقديره للطب واعشاب الطب وابر الطب الصيني، ويجزل الشكر والامتنان لكل صناديق المرضى، معلناً كراهيته لرائحة الادوية ورائحة المستشفى، ومعبراً عن خوفه وقلقه من "ظل السكين على جسد التفاحة".

فيا سميح، يا شاعر الوطن والارض والتراب والشعب والكفاح والمقاومة، لا نخفي نحن ايضاً قلقنا عليك، وليس امامنا سوى الصلاة والتضرع والابتهال ورفع الايدي الى السماء وطلب الشفاء لك. وكلنا ثقة انك قادر على التحدي والصمود والمواجهة ومقاومة المرض وقهره بالتفاؤل الثوري، الذي عبرت عنه وجسدته في قصائدك العصماء، وبالابداع الجميل. وهذا ما فعله الكاتب المسرحي السوري سعد الله ونوس، الذي عصف به المرض ولم يستسلم لكآبة الموت وفتك المرض وقاومه بالكتابة المسرحية وغزارة الانتاج، وكان يردد: "اننا محكومون بالامل، وما يحدث اليوم لا يمكن ان يكون نهاية التاريخ".

سميح القاسم، حسبك أن تتذكر

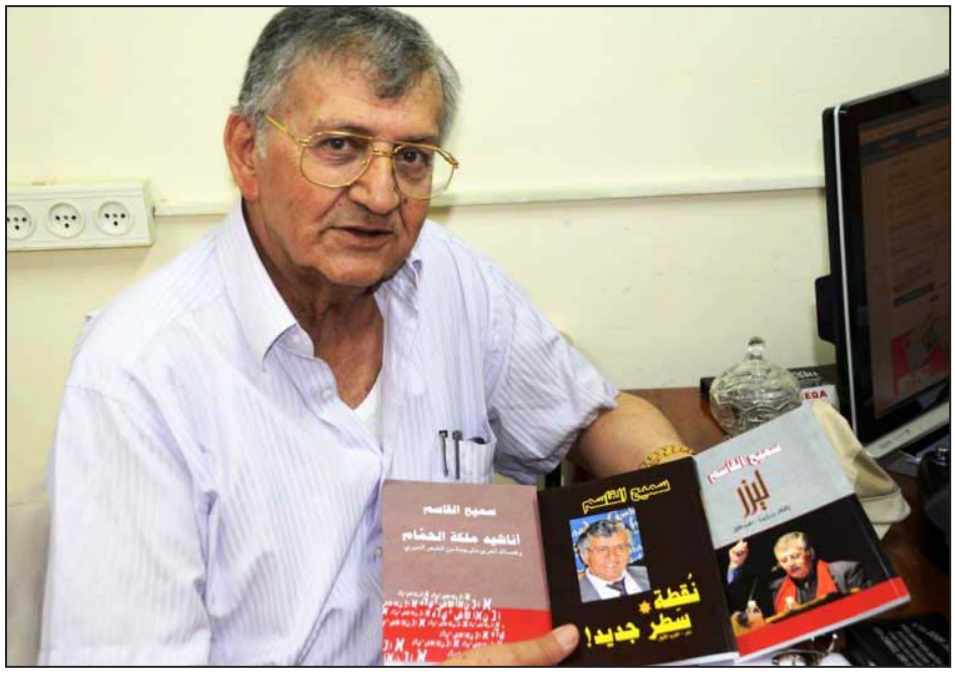

أحد أبرز الكتّاب الفلسطينيين المعاصرين، ارتبط اسمه بشعر الثورة والمقاومة. في «إنها مجرد منفضة" يحكي سيرته فتى ومناضلاً وشاعراً، سارداً معاركه تحت الاحتلال ورفقته الحزبية مع محمود درويش ومساجلاته مع الإسرائيليين. حياة عاشها بالطول والعرض والنكتة أيضاً في «إنها مجرد منفضة" (دار راية - حيفا)، يكتب سميح القاسم سيرته بروح دعابة وتهكّم حكّاء يودّ جعل حكايته ممتعة. «ليست سيرة ذاتية، هي محاولة لترميم صور من الذاكرة، صور قديمة، بالأبيض والأسود».

مصطفى مصطفى

يقول الشاعر الفلسطيني في مطلع كتابه ويمضي في عرض صور ينتقيها من ألبوم السيرة. في سيرته كما حياته، تعدّى موقع الشاعر ليكون الشخصية العامة ورجل المجتمع. في مونولوج طويل مع الذات، يحكي الشاعر (١٩٣٩) سيرته بادئاً بأهله، ماراً بأسماء ورفاق وشعراء، وبوقفات خاصة عند محمود درويش والرفقة الحزبية التي جمعتهما. حياة عاشها بالطول والعرض والنكتة أيضاً: قصص مع مشاهير الأدب والفن والشعر في العالم ورجالات السياسة... وجنرالات العدو أيضاً: من دعوة غداء في بيت القائد الجزائري أحمد بن بلة في باريس مروراً بإسحق رابين الذي جمعته به المصادفة في إحدى السفرات (!) إلى تفكير القاسم بقتل ديفيد بن غوريون في أحد الوديان.

سيرة يسردها بضمير المخاطب مطعّمة بالطرف وبسلاسة الصحافي المتمرس واللاذع. مساحة يفردها لإقامته في موسكو وغرائب الزمن السوفييتي: «كنت في موسكو. ويزورك في فندقك عدد من أهل الأدب والسياسة والفن العرب المصريين. وكانت بينهم الفنانة سعاد حسني. حين شاهدت حقائبها الكثيرة المملوءة بالهدايا، فقد علّقتَ مداعباً: يا لك من فنانة بورجوازية! ولم يتأخر ردّ سعاد حسني التي كالت لك الصاع صاعين: أنا بورجوازية؟ طب بص شوف أنا جايبتلك إيه هدية. أهو لينين شخصياً!». يكتب القاسم سيرته فتى وشاعراً يعارك الواقع في فلسطين المحتلة، ويمتطي شهرته الأدبية إلى عواصم العالم. يروي دخوله إلى «الحزب الشيوعي الإسرائيلي» وملابسات خروجه منه بعد اتهامه بـ«الشوفينية القومية». زمن الفلس والرفقة والشباب الصاخب برغم كل شيء، فظائع «الحكم العسكري» للاحتلال والمقاومة بالكلمة.

في سيرته، يعرّج على «الأخوة العربية اليهودية" برغم أنها لم تكن موضع ترحيب من الطرف الآخر كما يقول: «ذات يوم كنت سائراً في مظاهرة كبيرة في حيفا، وكنت أردّد مع المتظاهرين «أحفا يهوديت - عرفيت" (أخوّة يهودية ـ عربية). فجأة تصدّى لكَ مواطن يهودي من أحد الأرصفة صارخاً في وجهك: لن يحدث ذلك أبداً. لن تكون أخوّة كهذه! وبسرعة البرق (...) رددت على ذلك «المواطن» الاستفزازي: لطيزي! وتابعت السير الحماسي في المظاهرة (...). وفي برنامج تلفزيوني عبري حول القدس بينك وبين إيهود أولمرت، رئيس بلدية القدس «الإسرائيلية" قبل رئاسة الوزراء، عدت بالمدينة إلى تاريخها الأوّل إلى أيام اليبوسيين والكنعانيين، وقدّمتَ أدلتك الدامغة على بطلان خرافة الهيكل اليهودي، فما كان من أولمرت إلا أن هدّد بترك الحوار ومغادرة الأستوديو حين أثبتَّ عروبة اليبوسيين والكنعانيين. ولولا تدخل المذيع بقوة لما تابع أولمرت حواره وهو يغلي غضباً». ليست مساجلات القاسم مع الساسة الصهاينة على التلفزيون فحسب. ينقل لنا القصة الآتية التي تعطي فكرة عن الشخصية العامة التي كانها القاسم: «لعلّه من البديهيّات والمسلمات أن تكون معجباً بالخيول العربية الأصيلة (...). وحين دعيت لمشاهدة عرض لهذه الخيول في مزرعة أوري أرئيلي، الناشط السلمي والإعلامي، فقد لبّيت الدعوة بمرافقة زوجتك وأبنائك. كان هناك عدد من كبار الشخصيات العربية واليهودية. وبرز بين الحضورِ شمعون بيرس وإيهود براك. سألكَ بيرس عن أسماء أبنائك. وحين ذكرت له الاسم «ياسر»، قام بحركة مسرحية ملفتة للنظر: أهلاً يا صديقي ياسر. تعال نتابع الحديث. ونزولاً عند رغبة المضيف، ألقيت كلمة باللغتين العربية والعبرية. وما إن فرغت من إلقاء كلمتك حتّى هبّ إيهود براك من مقعده بجانب بيرس ليصافحك بحرارة، قائلاً: موافق على كلّ كلمة قلتها بشأن السلام والمساواة. وإذا أصبحتُ في يوم ما رئيساً للوزراء، فسأفاجئكم بالإصلاحات الواسعة والشاملة (...). وأصبح براك، لاحقاً، رئيساً للوزراء. وفاجأكم، لكن بالاتجاه العكسي لوعوده، ولم يبق هناك، لا قطار ولا سكّة، ولا براك!».

ينهي القاسم سيرته بما يشبه الاعتراف والمرافعة: «ولأنّك لا تدّعي العصمة ولا تزعم الكمال، فإنّك تترك الجزء الأخير من هذا البوح العفوي وغير المقولب واللامحسوب، مجالاً لكلمة أخيرة. (...) وها أنت منهمك بضرورة الاستعداد للحياة وضرورة الاستعداد للموت، لكنّك مؤمن بأنّه لا بُدّ من فرج قريب بقدر إيمانك بأنّك من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة، ومن رمل إلى رمل، ومن تراب إلى تراب، ومن ماء إلى ماء، ومن رماد إلى رماد، ومن قمح إلى ورد. ومن كلّ شيء وأيّ شيء إليها، إلى المنفضة، فما هي إلّا منفضة. إنّها منفضة. إنّها مجرّد منفضة!».

الأحفاد والكولاج أحد أبرز الشعراء الفلسطينيين الذين ارتبط اسمهم بشعر الثورة والمقاومة من أراضي الـ٤٨. ابن قرية الرامة في قضاء عكا ولد في الاردن عام ١٩٣٩، وتعلّم في مدارس الرامة والناصرة. انصرف إلى نشاطه السياسي في «الحزب الشيوعي الإسرائيلي» قبل أن يتركه. عمل في الصحافة وأسّس صحيفة «كل العرب» في الناصرة، وهو حالياً رئيس تحريرها الفخري. أصدر العديد من الدواوين، آخرها «هواجس لطقوس الأحفاد" و«كولاج ٣" اللذين صدرا منذ أيام عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر»، بالتعاون مع «مكتبة كل شيء" في حيفا.

عن جريدة الرأي الاردنية

سميح القاسم.. رحيل المغني المحارب

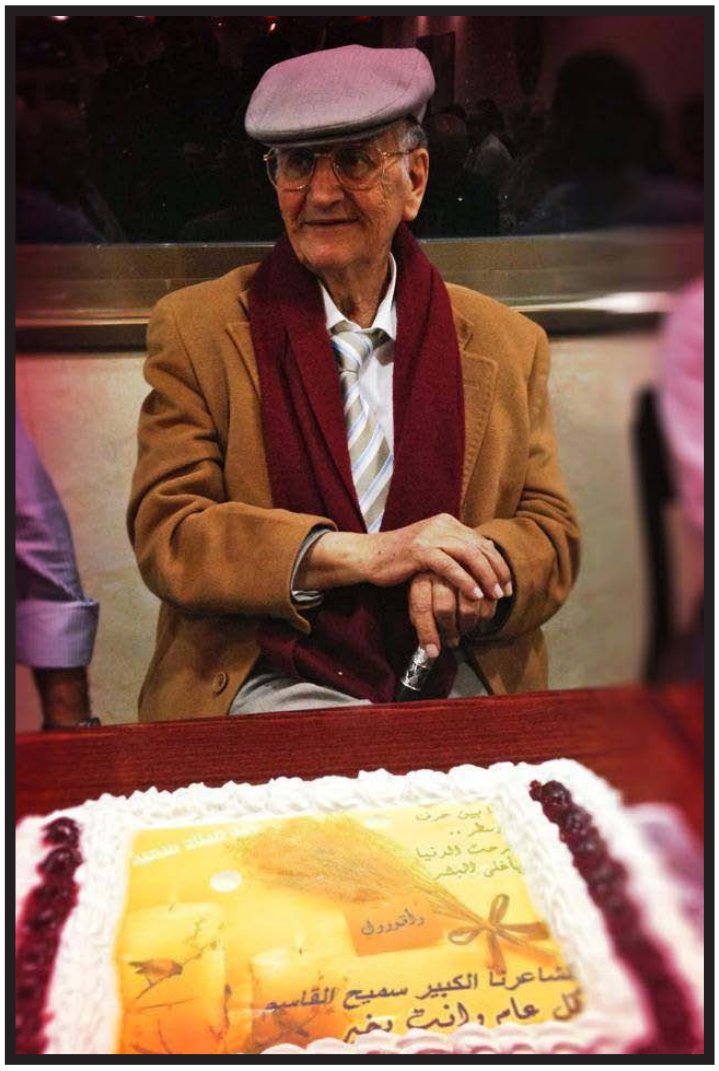

عباس بيضون
شاعر لبناني

بعد محمود درويش يتم برحيل سميح القاسم غياب الثنائي الذي أشرف على العالم العربي والشعر المعاصر من قلب فلسطين المحجوبة حتى ذلك الوقت. وكان صوت درويش. القاسم أكثر من قصيدة، كان صوتاً مجروحاً ومعذباً وصارخاً بقدر ما كان استذكاراً وهوية واسماً آخر وعنواناً لفلسطين. لقد ظهر ذلك الصوت قبل السلاح وكان بالتأكيد يحمل في طياته كل الكثافة وكل الزخم اللذين تكدست فيهما لا الذكريات فحسب، ولكن أيضاً الرعف والحنين والتواريخ الدامية والمضيئة وسلسلة الثورات والمعارك والبطولات المكسورة والحروب الخاسرة.

درويش والقاسم لا نظلم أياً منهما حين نقرنهما ببعضهما بعضاً فقد تواصل الاسمان كما تواصل الشخصان وكانا معاً وجهاً مزدوجاً ومتفارقاً لفلسطين التي غدت بدءاً من أواسط القرن الماضي ضميرنا وسرنا وجرحنا في آن معاً. لقد بدأ هذا التاريخ بخسارة مدوّية ومأساة وسيبقى هذا طابعه وستبقى هكذا دمغته وسيبقى ينزف ويكون نزفه وتكون تنهداته إيقاعنا ولحننا، ربما لهذا ظهر المغني قبل المحارب، ربما لهذا بدأت المرثية قبل الأهزوجة، ربما لذلك ورثنا هذا الجرح وأورثناه وتركناه ينطق ويتكلم عنا.

سميح القاسم الذي اهتدى من شيوعيته إلى فلسطينيته أو كانتا في الأصل واحداً، لقد بقي له وللعرب الباقين هذا الركن وذلك المعزل، وكان ينبغي أن يمر وقت كاف حتى يتحول هذا المعزل إلى دوامة وذلك الركن إلى معترك، وبالتأكيد كان لسميح القاسم وبقية الشعراء والكتاب الفلسطينيين الذين صدحوا من فلسطين الصيحة الأولى التي وصلتنا مدماة متقطعة وكان ينبغي أن يمرّ وقت قبل أن تمتلئ وتتّسق وتمور بالنياعة والنضارة وتغدو كونية وملحمية وتستعيض عن منفاها في وطنها بمنفى عالمي وتغدو الأرض بكليتها بلدها ومنفاها ويغدو الشتات أسطورتها وسِفرها وتغدو فلسطين معها ومعهم ايتَاكا الجديدة ويغدو الشاعر عوليسها الجديد.

بقي سميح القاسم في فلسطين وهاجر محمود درويش قبل أن يرجع في عودة ثانية إليها. لكن الباقي ما كان له أن ينكسر وما كان لصوته أن يشحب ويخفت. لقد بقي تحت زيتونته وكان عليه أن يصدغها وأن يصرخ في وجه من يريد أن يغصبه إياها. كان عليه أن يشهر قصيدته كما لو كانت سلاحاً وأن يحارب بها ويُطلقها على المتربصين به. كان عليه أن يبدي أسنانه لا قلبه وحده، وأن يخيف ما وسعه أن يخيف، وأن يصرخ ما أمكنه أن يصرخ وحين كان وحده في الدرب، وحده في العزلة، كان يرفع صوته بنشيد المحارب، يواجه بكبريائه مَن يضعون أصابعهم في جرحه. كان يرفع رأسه من فوق مضطهديه. وظل دائماً في تخييل المعركة. كما ظل دائماً في ذكرى المواقع والأيام والحروب. تلك كانت تحييه في الذاكرة وتحييه في الخيال وتحييه في الواقع حتى لا يقتله القهر ولا تقتله العزلة.

كان له نشيد المحارب الذي يتحوّل أحياناً إلى أغنية نصر واستدعاء للمستقبل وأمل لا يشيخ وبشارة خضراء كالزيتون. بقي سميح القاسم في فلسطين حيث كان عليه أن يقاتل وأن يغني في المعركة وأن يهلل ويرتجز في وسطها. أما درويش فقد هاجر ليبحث ثانية عن ايتاكا. فلسطين وليغني خسارته وليحمل المرثية إلى ضفاف العالم.

كتب سميح القاسم كثيراً. ألّف ما يزيد على الستين مؤلفاً في الشعر والرواية والمسرح والمقالة والترجمة والرسائل. كان الحبر والحرف بالتأكيد حياته الثانية وكلما خط كلمة عربية كان يسترد بذلك هويته ويحيي فلسطين، يستردها بالكتابة ويستردها بالشعر ويستردها بالأغنية ويستردها بالنثر، وحين أصابه السرطان واجهه بكبرياء المحارب وشجاعة المحارب. لم يترك قلمه يسقط من يده ولم يخف من المرض بل حاول أن يخيفه هو الذي اعتاد منذ نعومة أظفاره أن يخيف ما هو أشد من السرطان وأقوى من الموت.

عن جريدة السفير اللبنانية

رحل عنا عظيم الشعر سميح القاسم..... يرحل شاعر ويولد الف شاعر

ايفان الزيباري

لا اعرف كيف انسج خيوط الكلمات والحروف معا لكي اكتب عدة سطور لكي اهديها لروح الشاعر العظيم سميح القاسم فمنذ ان قرأت نبأ رحيله عن الحياة والدموع تختزل كل شيء في ملامح وجهي نعم انا اكتب وانا ابكي لأنني اشعر انني فقدت شيئا في غاية الروعة.....

اليوم رحل سميح القاسم وقبله محمود درويش وقبله ابي الروحي نزار قباني اليوم اصبحت يتيما في عالم الشعر والثورة والانسانية فلم يبقى احد لكي اتعلم منه الشعر لم يبقى احد اتصفح قصائده لكي اثور كعادتي واتجاوز الخطوط الحمر.....

لا اعرف لماذا يموت العظماء لا اعرف لماذا يرحلون ويتركون اجيالا ثائرة تنتظر الثورة لا اعرف لماذا يرحل عنا صناع الكلمة في فوضى هذه الحياة فالشاعر الكبير سميح القاسم كان يتقمص كل الادوار فتارة كان رجلا وتارة ثائرا وتارة سجينا في قصائده يبحث عن لغة جديدة لكي يصنع منها عوالم هادئة الملامح ولكنها غارقة في نيران الثورة.....

لا اعرف كيف اصبحت شاعرا ولكنني اعرف انني كنت اتسلل الى مكتبة ابي لكي ابحث عن اي كتاب ولكن يوما ما وجدت دواوين نزار قباني ومحمود درويش وسميح القاسم في احدى زوايا مكتبته فقررت ان ابدأ مشواري مع الشعر لذا انا اعتبر نزار قباني ابي الروحي واعتبر محمود درويش وسميح القاسم اسطورتين شعريتين لا يمكن ان تتكرر بعد الف قرن.....

تعلمت من نزار قباني ان احب واعشق واتغزل وأصف الانثى.

وتعلمت من محمود درويش وسميح القاسم ان هنالك ثورة قادمة لا اعرف متى موعدها ولكن يوما ما سيبزغ فجر الثورة

ولكن اليوم سقط اخر الثائرين في وسط زحام هذه الحضارة وبقيت قصائده

يقول الشاعر الكبير سميح القاسم في مجموعة من قصائده.....

تعالي لنرسم معاً قوس قزح

الحضور الأساسي للقصيدة وليس للشاعر

حاوره: طلعت سقيرق

لهي حياة غير جديرة أن تعاش"، أو كما قال جان كوكتو: "الشعر ضرورة وياليتني أستطيع أن أعرف لماذا" أو على رأي سومرست موم: "الشعر هو تاج الأدب، هو غايته ومنتهاه. إنه أرقى فعل يقوم به العقل البشري".. وكان لابد من لقاء الشاعر الكبير سميح القاسم. حاورته يوم الأحد ١٩/١١/٢٠٠٠. الشاعر الذي أعطى الشعر صفوة الروح والعمر، فانتصبت القصيدة شجرة عطاء لاينضب.. ربما يبقى القول الأوجز في تعريف الشاعر الإنسان، والشاعر الصديق سميح القاسم، متمثلاً في أنه لايبرح الشباب وعنفوان الإنسان الممتلئ بالحيوية والمرح والأمل، ليكون شاعر المقاومة ورئة الكلمة الصامدة.. ويطول الحديث مع الشاعر الكبير سميح القاسم..

أقرأ من دفتر شعره:

طعام الشهيد يكفي شهيدين
يا أمنا الريح.. ياهاجر المتعبه
أعدي الطعام القليل لأبنائك العائدين على عربات المنافي
خذي كفني شرشفاً للأواني العتيقة
قومي افرشي للضيوف الأحبة كوفيتي..
إنهم متعبون جياع
أعدي لهم وجبة من بقول الخراب
أعدي كؤوس العذاب
وإبريق أحزانك المرعبه
سيجمعنا الخبز والملح عما قريب
وتجمع أشلاءنا لقمة العودة الطيبه

وأفتح دفتر أمسية شاعرنا سميح القاسم التي امتد فيها الحضور دالية شغف.. ويحدثني عن علاقته الجميلة بالجمهور، عن القصيدة التي تشعل فتيل التواصل، فيكون الشعر أغنية ممتدة من الأعماق للأعماق..

وإذا أردنا أن نوجز في التعريف عن شاعر مثل سميح القاسم نقول إنه عرف بمقاومته الدائمة للاحتلال الإسرائيلي، وسجن مرات عديدة، وفرضت عليه الإقامة الإجبارية والاعتقال المنزلي وطرد من عمله عدة مرات بسبب نشاطه الشعري والسياسي.. اشتغل معلماً وعاملاً وصحفياً.. أسهم في تحرير "الغد" و"الاتحاد" ثم رئس تحرير مجلة "هذا العالم" عام ١٩٦٦، ثم عاد للعمل محرراً أدبياً في "الاتحاد" وسكرتيراً لتحرير "الجديد" ثم رئيساً للتحرير.. وأسس منشورات "عربسك" في حيفا مع الكاتب عصام خوري عام ١٩٧٣، وفيما بعد أدار "المؤسسة الشعبية للفنون" في حيفا.. وهو اليوم رئيس مجلس إدارة تحرير "كل العرب" الصادرة في الناصرة، ورئيس تحرير الفصلية الثقافية "إضاءات"..

صدر له أكثر من أربعين كتاباً في الشعر والقصة والمسرح والمقالة.. وصدرت أعماله في سبعة مجلدات عن ثلاث دور نشر في القدس وبيروت والقاهرة.. ترجم عدد كبير من قصائده إلى الانجليزية والفرنسية والتركية والروسية والألمانية واليابانية والإسبانية واليونانية والإيطالية والتشيكية والفيتنامية والفارسية ولغات أخرى.. حصل على الكثير من الجوائز عن شعره منها "غار الشعر" من اسبانيا، وجائزة البابطين للإبداع الشعري.. وأسأل..

بعيداً عن المقدمات المعروفة في الأسئلة، أدخل مباشرة إلى صلب الموضوع لأطرح موضوعة تقول كيف ينظر سميح القاسم إلى مسيرة شعره.. ليتك تستحضر الناقد عندك؟؟..

يجوز القول إن الشاعر هو أفضل ناقد لنتاجه، وهو أسوأ ناقد لنتاجه في الوقت نفسه.. أميل إلى إعفائي من الحالتين.. لكن استجابة لإلحاح سؤال كهذا أستطيع القول أو التحدث عن الأمور العائمة على السطح، كتحول القصيدة من الإيقاعات الحادة والألوان الزاهية والقوية في مرحلة الصبا والشباب، إلى حالة التداخل الإيقاعي والتداخل اللوني.. خفوت الصوت بعض الشيء واقتحام ألوان الشك لمواقع اليقينية المطلقة التي تميز روح الشباب.. لكن يبقى هناك الخط السري الذي يصل بين القصائد الأولى والقصائد الجديدة بدون شك.. بكلمات أخرى تتفاوت أدوات التعبير بتفاوت الزمن والتجربة وتراكم معرفي ووجداني هو من طبيعة الحياة.. ويبقى الهاجس الأساسي، هاجس الحرية والعدل الإنساني، بحيث يشتبك السياسي بالوجداني بالمجرد بالمطلق، والشك باليقين.. هذه سمة تجربتي بخطوط عريضة بين الأمس واليوم..

تأخذني هنا للسؤال عن النقد والنقاد.. كثيرون تناولوا شعرك.. تجربتك الشعرية درست بغزارة.. هل وصل النقاد إلى العمق.. ماذا أخذت من هذا النقد، مارأيك فيه؟؟

هناك نقاد ساعدوني على معرفة ذاتي بدون شك وأعني النقاد الذين لم يقتصر نقدهم على المعنى، ولا على الخطوط العريضة في الشكل، بل تعمقوا في هذه التجربة واستشفوا أموراً تتصل بالذات بالسايكولوجي، باللغة.. وعلى سبيل المثال فوجئت بدراسة كبيرة من ناقدة وباحثة أمريكية هي الأستاذة تيري دي يونك التي كتبت دراسة عميقة وهامة بعنوان "سميح القاسم وتحديث الجناس" حيث نظرت في تحديث الجناس العربي في قصيدتي، وبهذا لفتت نظري إلى مسألة كنت أعيشها دون أن أنتبه لها، وهي مسألة المحاولة المستمرة لتكوين حداثة على أسس تراثية أصيلة، حداثة لاتتنكر للماضي، ولاتتقزم أمام حداثة الآخر الغربي أو الأجنبي، لكن تكون ذاتها من خلال التجربة في سياق عملية الكتابة وبالرجوع بقدر كبير من الحب والحنين إلى مقومات فنية متوفرة في تراثنا بشكل ملحوظ..

في شعرك دراما.. لنقل هناك إصرار على محاورة الذات الخارجة عن الذات الشاعرة، أي ذات المتلقي.. هذا يشدّ السامع أو القارئ؟؟

آمنتُ دائماً بأن الدراما هي عنصر جوهري وأساسي في العمل الشعري، وقد يعود ذلك

تتفاوت أدوات التعبير بتفاوت الزمن والتجربة

هناك نقاد ساعدوني على معرفة ذاتي، أعني النقاد الذين لم يقتصر نقدهم على المعنى

◄

إلى بدايات ثقافتي الشعرية، قد يعود ذلك مثلاً إلى مغني الربابة الذي سمعته في بيت جدي، وتتبعت أداءه عبر وجو الحضور.. أيضاً أنا أحب المسرح، وقد كتبت المسرح من وقت لآخر. فمن الطبيعي أن يكون العنصر الدرامي قائماً، وهي مسألة أشار لها معظم النقاد الذين كتبوا عن تجربتي.. نعم إنه شديد الحضور في قصيدتي.. والعنصر الدرامي حتى في صيغة المونولوج يفترض ويستدعي الآخر..

ألاحظ أن قارئك ومستمع شعرك يعيش فسحة الشعور بأنه كاتب القصيدة، مشارك في صياغتها، كأن القصيدة تنبع منه هو.. ألا تطرح هذه النقطة تساؤلاً؟؟..

أنا معك في ذلك.. هنا تدخل نظرية التقمص.. وهي نظرية بدون شك تنبع من خلال تراث الموحدين وقد كان لي أن نشأت في بيئة مدهشة في تنوعها وتعدديتها.. نشأت بين جد فقيه علامة في شؤون الدين وجد علماني حداثي بشكل متطرف.. في الحقيقة في طفولتي عايشت مناخات وأجواء متعددة ومدهشة في رحابتها وفي ثرائها، وهذا بطبيعة الحال انعكس أيضاً في تجربتي، وهذا ماساعدني بعض النقاد على رؤيته من أنني أستفيد كثيراً من الرموز الدينية القرآنية والتوحيدية والمسيحية وحتى من البوذية ومن ديانات قبائل الإنكا.. قصيدتي بالطبع لاتستطيع أن تكون إلا علمانية كصاحبها، لكن لم تجد هذه القصيدة غضاضة في وجود هذا التداخل، هذا التنوع الجميل في رأيي بين القرآن الكريم وأبي ذر الغفاري وكارل ماركس وابن خلدون.. جمعت مايبدو مجموعة من التناقضات، لكن هذه التناقضات وجدت صيغة من التناغم، من التعايش، من خلال تجربتي..

هناك شعراء يتحولون إلى رمز، أنت واحد منهم..

لايتحول الشاعر إلى رمز إلا من خلال قصيدته.. في الحقيقة الشاعر يستفيد من "قصيدته" في هذا.. الحضور الأساسي للقصيدة وليس للشاعر.

ربما أشير هنا إلى هذا التواصل والتماهي الحميم بينك وبين الجمهور.. ومن ثم فالشاعر هو صاحب القصيدة؟؟..

أولاً أنا سعيد بهذا التواصل الحميم بين قصيدتي والجمهور.. وهذه المشاركة تنجم أيضاً عما يجوز تسميته بالتماهي بين ذاتي وذات الآخر.. هناك شيء من التماهي لم أخطط له.. لكن كما يبدو من ردود الفعل على هذه القصيدة يبدو أن هناك تماهياً إنسانياً ووجدانياً وفكرياً أيضاً بيني وبين عدد كبير من الناس..

في سنوات مضت اعتبرت غزيراً في نتاجك، ثم بدأت في الإقلال والتأني.. برأيك ماهو سبب التحول إلى الإقلال؟؟

أعتقد أن هناك خطأ بصرياً في الشطر الأول من عمري، ربما كنت أكتب القصائد بالمقاييس العادية وبتوهج الشباب.. كل قضية تصادفني تتفجر من خلال قصيدة.. بمرور الزمن تصورت لدي صيغة السربية أو المطولة حيث ظهرت سربيتي الأولى "إرم" لكن لم أعتمدها شكلاً أساسياً إلا في العقدين الأخيرين.. وهذا الشكل من المطولات الشعرية السربيات التي تقوم على التداعي ولاتقوم على وحدة الشكل، تقوم على تعددية الحالات واللمحات والإيقاعات والأشكال، لكن ينتظمها هاجس واحد أساسي من بدايتها حتى نهايتها مع تشعبات واستطرادات كثيرة في الشكل

في طفولتي عايشت مناخات وأجواء متعددة ومدهشة

أحبُّ المغامرة الفنية وأمارسها بكامل حريتي

وفي المضمون وفي الصور. هذا هو الشكل الذي أسميته بالسربية والذي كما يبدو استراح له عدد من الشعراء، من أصدقائي الشعراء، ومنهم شعراء كبار تبنوا هذا الشكل وكتبوا به.. لذلك أصبحت عناويني أقل غزارة.. لكن العمل الشعري حافظ أو ربما صعد من وتيرته..

أقرأ هنا في كتابك الشعري الجميل:

تقدموا.. تقدموا
كل سماء فوقكم جهنم
وكل أرض تحتكم جهنم
تقدموا..
يموت منا الشيخ والطفل
ولايستسلم
وتسقط الأم على أبنائها القتلى
ولاتستسلم..
تقدموا..
بناقلات جندكم..
وراجمات حقدكم
وهددوا..
وشردوا..
ويتموا..
وهدموا..
لن تكسروا أعماقنا
لن تهزموا أشواقنا
نحن قضاء مبرم..

أمن قصيدتك "رسالة إلى غزاة لايقرؤون"..

أسأل: الانتفاضة كتبها سميح القاسم بتميز.. ماأثرها على أدبك بشكل عام، وعلى أدبنا الفلسطيني بامتداده؟؟..

هناك نقاد كثيرون بحثوا عن إرهاصات الانتفاضة في قصائدنا، في الشعر العربي الفلسطيني، وألمحوا إلى مقاطع وإلى أبيات وإلى قصائد كأنما بشرت بالانتفاضة وحرضت عليها، وهذا اقتراح مشروع ومبرر عند الناقد.. لكن الانتفاضة الأولى

آمنت دائماً أن الدراما هي عنصر جوهري وأساسي في العمل الشعري

لايتحول الشاعر إلى رمز إلا من خلال قصيدته

لم أكن مراقباً فيها بل أتيح لي أن أشارك في بعض فعالياتها. لذلك قصيدة "رسالة إلى غزاة لايقرؤون" كانت من قلب الحدث وعرفت بشكل واسع..

أعتقد أنها قصيدة الانتفاضة، وأنها أول قصيدة عن الانتفاضة؟؟

كانت أول عمل شعري متكامل كتب في قلب الانتفاضة، وبدأت إيقاعاته على إيقاع قنابل الغاز والرصاص المطاطي والشظايا التي كانت تتطاير من حولي في القدس.. إيقاعاتها بدأت هناك.. أخذت إيقاع الشارع وإيقاع المظاهرة ورائحة الغاز المسيل للدموع التي دخلت رئتي.. كأنما كل هذه الأمور كتبت نفسها في هذه القصيدة.. رغم البساطة الظاهرية والمباشرة الفنية الموجودة فيها دون شك..

إنها من نوع الشعر الذي نطلق عليه تسمية السهل الممتنع؟؟

قد تكون تسمية السهل الممتنع هي التسمية الأدق نعم.. بحيث يعتقد كل قارئ أنه يستطيع أن يكتبها، ولكن اكتشفت أنا شخصياً أنني لاأستطيع أن أكتبها مرة أخرى.. لاأستطيع أن أكتب مثلها مرة أخرى.. هذه القصيدة لم تكن من خارج الانتفاضة، بل كانت من داخلها وكانت إيقاعها وكانت لحمها وكانت دمها، لذلك بقيت وترددت كثيراً.. هي قصيدة الانتفاضة بالفعل.. في كل أمسية شعرية أطالب بقراءتها، أحياناً أشعر بضيق، أريد أن أقرأ شيئاً جديداً مختلفاً، ويصر الجمهور على قراءتها.. أحياناً أدعي أنها ليست معي لأتهرب..

لكن لاتنسى أن الجمهور صار يحفظها.. فهو يردد معك ماتقرأ حين تقرأها..

نعم حين أقرأ هذه القصيدة يرددون معي..

نعود لشعر الانتفاضة بشكل عام.. ليس بالضرورة أن كل مايكتب عن الانتفاضة

هو شعر جيد، وليس بالضرورة أن يكون الموضوع العادل والجميل والجيد كافياً لتبرير قصيدة. هناك قصائد جيدة كتبت عن الانتفاضة، وهناك قصائد رديئة كتبت عن الانتفاضة. الانتفاضة تحولت إلى هاجس ليس في الشعر الفلسطيني فحسب بل في الشعر العربي ككل، لأنها تحولت من حدث سياسي إلى هم قومي ووطني وإنساني.. فوجئت في بلجيكا بشاعر يقرأ لي قصيدة عن الانتفاضة باللغة الفرنسية، فوجئت بألمانيا بشاعر ألماني يقرأ لي قصيدة عن الانتفاضة بالألمانية.. فوجئت في أكثر من بلد أجنبي بشعراء وشاعرات كتبوا قصائد بعنوان "انتفاضة" لفظ الكلمة بالعربية وبحروف أجنبية..

قد أقف هنا عند نوع من الأدب الإسرائيلي الذي كتب عن الانتفاضة.. ماذا نقول عن هذا الأدب أو هذا النوع؟؟

ليس لدي قدر كاف من العنصرية بحيث أنفي الصدق عن كل ماكتب، قد يكون هناك شاعر عبري شعر بالفعل بالإهانة من تصرفات دولته وجيشه وشرطته واستفذ وكتب قصيدة صادقة، قد يكون ذلك.. لكن على العموم تظل الكتابة العبرية بمعظمها نوعاً من تبرئة الذمة، تسجيل موقف، ولم يزل هناك وقت حتى يتحول الإنسان الفلسطيني والإنسان العربي إلى هم حقيقي أو إلى نقطة قلق عند الكاتب الإسرائيلي.. ما زال يكتب بفكره وبآرائه وأشك في أن يكون الإنسان العربي قد تحول إلى هم وجودي عند الكاتب العبري..

قيل الكثير عن الأدب المقاوم، لن أدخل في التوصيفات الجاهزة.. لكن هناك من رأى بشيء من الغباء ربما أن الأدب المقاوم كله سيطير بنفخة حين يحل السلام.. أصر على أنه رأي عجائبي.. لكن هنا أريد أن أسألك ماذا تقول عن هذا الأدب حاضراً ومستقبلاً؟؟.

لنقل لهذا الرأي العجائبي أولاً ليسترد شعبنا حقوقه وليطر أدب المقاومة في الهواء!!..

نحن لم نطلب النكبة ولم نطلب النكسة ولم نطلب الكوارث لنقاومها ولنكون شعراء مقاومة.. وثانياً نحن لم نطلق على أنفسنا شعراء المقاومة أو أدباء المقاومة التسمية أطلقت علينا من الخارج ونعتز بهذا اللقب، وأولئك الذين يقفون هذا الموقف من أدبنا هم محرجون، نظروا لنوع آخر من الأدب ولم تقدم نظرياتهم إبداعا استحق الحياة أو استحق الوجود، بالمقابل ظهرت ظاهرة شعرية وأدبية أقبل عليها الشعب العربي والقارئ العربي وعانقها وأحبها واحتضنها وحفظها عن ظهر قلب، لذلك اعتبروا هذا الأدب كأنما هو صخرة تحطمت عليها أمواجهم وتطايرت عليها رذاذاً.. أنا مع تعايش التجارب الأدبية، ليبدع كل من شاء كيف شاء، لأضع مواصفات للشعر ولا للنثر ولا للنقد، أقول قصيدتي كما يقولها زملائي، بتجربتنا، بطاقتنا الفنية، بوعينا وبوجداننا، ونتابع الحياة كما ينبغي أن نتابعها، ولكن كما يبدو فإن السلام والحرب معاً لا يستطيعان محو وجدان شعب وذاكرة شعب، نرجو أن تنتهي الانتفاضة إلى نصر وألا يضطر شعبنا إلى الانتفاض على الاحتلال طبعاً من خلال زوال الاحتلال..

لكن أعتقد أن جمهور الشعر العربي سيحن دائماً إلى نماذج كثيرة من شعر الانتفاضة وسيحفظها عن ظهر قلب بمثل مايحفظ صورة جده وجد جده، مضى الأجداد من العالم ومازالت صورهم في قلوبنا وفي منازلنا وفي دفاترنا وفي مكتباتنا، لذلك أعتقد أن التعامل النقدي مع هذه التجربة يجب أن يكون أرقى وأكثر صدقاً وبعيداً عن العقد الذاتية والإحباطات والشعور بالقزامة أمام هذه التجربة أو تلك..

حبك للتجديد واضح جلي في شعرك ونثرك.. مامفهومك للتجديد من جهة وللحداثة من جهة أخرى؟؟..

أنا بطبعي ملول، هذا ينعكس على تجربتي.. لاأحب التكرار، أحب المغامرة الفنية وأمارسها على مزاجي وبكامل حريتي وأحترم حس الآخرين بالمغامرة الفنية.. لذلك من الطبيعي أن يلتقي في تجربتي المناخ الكلاسيكي بالمناخ الحديث، السريالية بالواقعية الاشتراكية.. هذه شخصيتي في الحياة..

أخيراً أنت من الأسماء القليلة جداً التي عرفت بشكل واسع لتكون نجماً.. أسأل ماتأثير النجومية على شعرك وأدبك.. ألا تشعر بأن حب الناس يحاصرك ويطالبك بالمزيد دائماً؟؟..

تسمية النجومية تسمية من خارجنا.. أما تأثير هذه "النجومية". أصر الشاعر سميح القاسم على وضعها بين قوسين. فربما لاشيء، فهي لاتؤثر على القصيدة وعلى السلوك الشخصي.. برأيي فقط الإنسان الضعيف، ضعيف الشخصية، تسكره النجومية وتفقده القدرة على الاتزان.. الأمر الأساسي عندي هو هذا الاكتشاف الجميل لأصدقاء لقصيدتي، في كل مكان أذهب إليه هناك أصدقاء محبون أوفياء لهذه القصيدة وهذا عزائي الوحيد..

وتبقى القصيدة طائر العمر ونسمع من الشاعر القاسم:

هلا.. ياهلا
إلى عرسنا.. أولاً..
إلى شمسنا.. أولاً..
إلى قدسنا.. أولاً..
هلا.. ياهلا..
بأبيض
أسود
أخضر
أحمر
طعام الشهيدة يكفي شهيدين
والله أكبر
الله أكبر
الله أكبر..

عن موقع جهة الشعر الالكتروني

manarat
WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
خالد خضير

التدقيق اللغوي
محمد حنون

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

زنابق المزهرية

من أين ياصديقة حملت مزهرية والنظرة الشقية
.. من القدس العتيقة
ومن تُرى رأيت في عتمة القناطر من شعبنا المهاجر ؟
وما ترى سمعت ؟
رأيتُ بنت عمك في طاقة حزينة
.. تبوح للمدينة بهمها وهمك
رأيتُ في الشوارع ليلا من العيون
وإخوةً يبكون .. وألف طفل ضائع
رأيتُ في المداخن عصفورة جريحة
وطفلة كسيحة تبكي على المآذن
من أين ياصديقة حملت المزهرية ؟ والنظرة الشقية
.. من القدس العتيقة
هناك يا ابن عمي حملتُ المزهرية والنظرة الشقية
وقصة عن أمي عن أمي الضحية
لديّ ياصديقة زنابق حمراء ألوانها دماء
.. من القدس العتيقة
زنبقة حزينة من دم بنت عمي وجدتها مذبوحة
في طاقة مفتوحة .. تصيح بالمدينة
قولوا لابن عمي زنبقة بريئة من مقلة مفقوءة لكنها تنادي
أراك يا بلادي .. أراك يابلادي
زنبقة ريّانة ..من طفلة محروقة ..تصيح ياخليقة ..
مهلا أنا عطشانة .. مهلا انا عطشانة ..
إليك ياصديقة زنابقي الحمراء زنابقي الدماء
كي تكمل الهدية
ورد ومزهرية
ورد ومزهرية
..من القدس العتيقة

سميح القاسم